# يضحك قلبي

فضيلة الشيخ

هاني حلمي

WWW.MANHAG.NET

# أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم

الحمد لله وكفى،

وصلى الله وسلم وبارك على النبي المصطفى وآله المستكملين الشرف ...

ثم أما بعد ،،

فأسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل جمعنا هذا جمعا مرحوما

وأن يجعل التفرق من بعده تفرقا معصوما،

وألا يجعل منا ولا بيننا ولا حولنا شقيا ولا محروما

اللهم علمنا ما ينفعنا وأنفعنا بما علمتنا وزدنا علما ينفعنا

اللهم اجعل ما أقول وما تسمعون حجة لنا لا علينا

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك على حلمك بعد علمك

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك على عفوك بعد قدرتك

سنتدارس إن شاء الله تبارك وتعالى في هذا اللقاء علامة جديدة من علامات العارفين بالله تبارك وتعالى،

وهي علامة تدل على صفاء القلب، تدل على تبتل هذا القلب، وتدل على وصول أنوار الهداية للقلب،

علامة فيها معنى سجود القلب وفيها معنى اخباته لله تبارك وتعالى،

هي تنشأ عن حالٍ مع الله تبارك وتعالى عجيـــب،

**♥ فتجد قلب هذا العارف يضحك وعينه تبكي ♥**

كما قال أبو يزيد : "العارف تبكي عينه ويضحك قلبه"

ولكي يتضح لكم المقصود من هذه العلامة، علينا أن ننظر إلى حال سيد العُبّاد صلوات ربي وسلامه عليه .. فقد روى أبو داوود وصححه الألباني من حديث مُطَرِّف عن أبيه رضي الله عنه قال : رأيت النبي ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحا من البكاء . [صححه الألباني، مشكاة المصابيح (1000)] .. ورواه النسائي بلفظ : أتيت النبي ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل، يعني يبكي. [صححه الألباني، مشكاة المصابيح (1000)] .. ورواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما بنحو رواية النسائي إلا أن ابن خزيمة قال : ولصدره أزيز كأزيز الرحى.

النبي ﷺ يدخل في الصلاة فيبكي مشفقاً، فيبكي خاشعاً، يخشى ربه تبارك وتعالى،،

ومع ذلك، وفي نفس الوقت يروي الطبراني، وصححه الشيخ الألباني أنه ﷺ قال: "جعلت قرة عيني في الصلاة" [صحيح الجامع (3098)]،

فكيف يمكن الجمع بين هذين الحالين؟ ..

تبكي العين ويضحك القلب، حال البكاء وحال السرور ،

إنها ثمرة معرفة الله تبارك وتعالى

انظروا لكلام القُشيري في قول الله تبارك وتعالى في وصف أهل النار: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ} [الصافات: 35]

فيقول القشيري "احتجابهم بقلوبهم أوقعهم في وهدة عذابهم؛ ذلك لأنهم استكبروا عن الإقرار بربوبيته سبحانه وتعالى. ولو عرفوه لافتخروا بعبوديته؛ قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ .. } [الأعراف: 206]، وقال تعالى : {لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ ..} [النساء: 172]"

فقرر القشيري هذه العلامة فقال :

"فمن عرف الله فلا لذة له إلا في طاعته وعبوديته"

فيبدو الإنسان حزيناً، ويبدو أثر خوفه من الله تبارك وتعالى، وكأن ذلك سيُفسد على الواحد حياته وليس الأمر كذلك .. فتبكي العين ، لكن يتنزَّل الله عزَّ وجلَّ على القلب بالسكينة .. بالسرور ..

لأن القلب هو الذي يرى .. { مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} [النجم: 11]

فحينئذ يكون الإنسان منا حال عبادته مع وجلهِ مع خوفهِ مع حزنهِ، يكون في نعيم، ويذوق لذة التعبد .. وهو معنى قول الله تبارك وتعالى:

{ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} [الإنفطار: 13]

قالوا: في نعيم في الدنيا؛ لأنهم في لذات الطاعات وحلاوة المناجات، وهي من أعلى النعيم في الدنيا والله.

وقد ذكرنا قبل ذلك كثيراً في عدة مواعظ هذا الذي أشار إليه ابن الجوزي رحمه الله من كلام بعض عباد بني إسرائيل، لما قال: يارب كم أعصيك ولا تعاقبني، فقال: كم أعاقبك ولست تدري؟ ألست قد حرمتك لذة مناجاتي ؟ ..

لذة المناجاة، لذة التعبُّد، حلاوة الطاعة، حلاوة الإيمان، هذه يذوقها من عَرِف من هو الرحيم الرحمن،،

# معاني لذة التعبُّد من القرآن والسُّنَّة

وخذوا تقرير هذه العلامة من الكتاب والسُّنَّة، فقد ذكر أهل التفسير معاني جليلة حول حلاوة التعبُّد ولذة التعبُّد لله تبارك وتعالى ، فمن ذلك ما ذكروه في قول الله تبارك وتعالى:

{ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف: 204]

فقالوا كلامًا رقراقًا ، قالوا: الاستماع لكلام الحبيب أشهى للقلوب من كل حبيب، لاسيما لمن سمعه بلا واسطة، فكل واحد ينال من لذة الكلام على قدر حضوره مع المتكلم.

عندما يكون القلب صافيًا، نقيًا .. هذا القلب قلب مُزكى مُطهَّر، فُيقبِل على الله تبارك وتعالى، فيفتح الله في القلب أُذنًا لتتذوق حلاوة هذه الكلمات .. فيعيش في حال غير الحال، ويذوق لذة لا تدانيها ولا تقاربها لذة ، فمن ذاق عرف .. ومن عرف لم يهدأ له بال حتى يُمتَّع بالسماع بلا واسطة كما ذاقها الكليم، وذاقها النبي الكريم ﷺ.

وقالوا في قول الله تبارك وتعالى { لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ} [الحج: 37]

ذكر الغزَّالي حول هذه الآية معنى أيضًا جميل، قال: ليس المقصود من إراقة دم القربان في الضحايا والهدي .. ليس المقصود هو الدم واللحم، بل ميل القلب عن حُب الدنيا، وبذلها إيثارًا لوجه الله تبارك وتعالى. وهذه الصفة قد حصُلت عند جزم النية والهمة، وإن عاق عن العمل عائق .. { لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى ..}، أي: يناله عمل القلب .. التقوى ها هنا .. التقوى ها هنا، محلها القلب ..

التقوى: التي تتمثل في نية القُربة وإرادة الخير، وإخلاص القصد لله وهذا هو المقصود، ثم قال : وعمل الظاهر مؤكِّد له ..

**يعني أولاً الباطن ، وبعد ذلك يؤكَّد بعمل الظاهر ،**

قال : ولذلك كانت نية المؤمن أبلغ من عمله ، فإن الطاعات ... استمعوا ..

هذا محل الشاهد:: فإن الطاعات غذاء القلوب، والمقصود لذة السعادة بلقاء الله تبارك وتعالى والتنعم بها ، وذلك فرع محبته والأنس به ..

إذًا، الطاعات يكون لها أثر .. قلنا العين باكية، وهذه القطرات من الدموع تنزل على القلب قبل أن تنزل على الخدود، فتطهِّر القلب، وتغسل القلب، وتغذي القلب .. فيصير القلب فرِح سعيد ، يشعر بلقاء الله ويتنعم بذلك ، وهذا لا يحصل إلا لمحب، عـــــــارف من هو الذي يعبُد، فهذا فرع عن محبة الله، وعن الأنس به فلا يكون .. استمعوا لأن هذا هو::

الواجب العملي:: كيف أشعر بحلاوة التعبد ؟، كيف أشعر بلذة الإيمان؟؟

قال : ولا يكون إلا بذكره، ولا يُفَرَّغ هذا القلب إلا بالزهد في الدنيا وترك شواغلها والإنقطاع عنها ..

إذًا، حتى نصل إلى هذه المنزلة:: من عَرِف الله عزَّ وجلَّ بكت عينه وفرح قلبه ..

حتى نصل إلى لذة التعبد وحلاوة الإيمان::

نحتاج إلى أن نزيد في أوراد الذكر خاصة،،

نزيد .. فمن يذكر الله عزَّ وجلَّ وقتًا ما، فليضاعفه؛ ليكون له أبلغ الأثر على قلبه ..

يكون دائم الاستغفار لله تبارك وتعالى .. دائم التهليل لله جلَّ وعلا .. دائم القول بالباقيات الصالحات ، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ..

يرسخها ويحطم بها تلك الصخور التي على القلب، وهذه القيود التي تحول بين القلب وبين التحبب لله والأنس به سبحانه وتعالى، حتى يشعر القلب حينئذ بالفرحة الحقيقية .. {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [يونس: 58]

وهذا القلب لا يمكن أن يُستودع محبة الرحمن، والأنس به سبحانه وتعالى ويكون فيه الشوق إلى لقاء الله جلَّ وعلا ويكون هذا القلب حقاً صدقًا يضحك ..

## إلا إذا فُرِّغ من الدنيا ،

وهذا بالزهادة فيها، وهذا يكون حينما يضعها الإنسان منا في كِفة، ويضع الآخرة في كِفة .. حين يردد على نفسه هذه الآيات التي تحرك القلب تجاه الربِّ {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا} [الكهف: 46]

اخرج الدنيا من القلب، هُناك آمال ينبغي أن تُشَدّ لها .. لن ينفعك ولدُك، يـــــــا من تشتغل بأهلك، بولدك .. يـــــــا من جُلَّ اهتمامِك على زوجِك وعلى ولدِك وعلى أهلِك وعلى دنيا تحصليها، إن لم تستخدمي هذه الأمور في الطاعة، وتكون قُربه إلى الله جل وعلا فهي دنيا ..

## فكل ما يقطعك عن الآخرة فهو من الدنيا،

فينبغي ألا يكون التعلُّق تعلقًا فاسدًا، فنتفرَّغ ونُفرِّغ القلب من شواغله وننقطع أوقات لله تبارك وتعالى .. فإذا أدينا حقوق الناس، وأدينا الواجبات التي علينا ...

## فينبغي أن نتعبَّد الله بالتبتل .. بالانقطاع؛ حتى يفرغ القلب، فيشعر بتلك المعاني العالية العظيمة،

هل فهمتم ؟ وهل تقرر عندكم هذا المعنى العظيم الجليل ؟ ..

فافهموا عني ، فوالله إن هذا الأمر الخطير من الأهمية العظيمة بمكان .. لو أنعم الله علينا بالبصر والفهم، ولو كنا بحق صادقين نريد أن نُحصِّل تلك المعاني الإيمانية .. نريد بحق أن نكون عباداً لله، نكون بحق عـــــــارفين من هو الله ، مُحصلين لتلك العلامات لتكون أمامنا نبراسًا على الطريق حتى نعرف هل نحن ملتزمون، مستقيمون ، مؤمنون حقا ؟ .. أم أننا في وهم كبير!!

{انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [الأنعام: 24]

**أما في السنَّة المطهَّرة::** فمعلوم أن معرفة الله عزَّ وجلَّ تورث الإيمان ، والإيمان وصف النبي ﷺ أن له حلاوة وأن له طعماً، وانظروا إلى الأحاديث في هذا الباب فهي أيضًا خطيرة، وربما بعض الناس لم يسمع ببعضها رغم خطورته وأهميته ...

**الحديث الأول:** وهو الحديث المشهور الذي في الصحيحين "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .." [متفق عليه]

لن ينال أحد منا ضحك القلب، وحلاوة الإيمان حتى يُؤثر الله على نفسه في مواطن، وهذا واجبنا العملي الثاني ..

**الواجب الأول: تفريغ القلب ودوام الذكر**

**الواجب الثاني: موقف نؤثر الله ونؤثر رسول الله ﷺ فيه على أنفسنا**

ليكون هذا الموقف مُدللاً على صدق رغبتنا في وصول تلك المعاني إلى القلب، أين التطبيق العملي ؟ أين إيثارنا لربنا على شهواتنا؟ ..

شهوة الكسل والنوم والراحة، والدعة، وشهوة التمتع بالدنيا، وشهوة أنه لا يمكن تحت أي ظرف من الظروف أني لا أقوم بعمل كذا وكذا وكذا من الأمور التي أوسع فيها على نفسي .. لا يمكن ألا أتتره .. لا يمكن ألا أفعل كذا .. لا يمكن ألا يحصل كذا .. شهوات .. شهوات قاطعات ..

متى يقول العبد منا لا لشهوة من تلك الشهوات إيثارًا لله ولرسوله ؟؟!

والمعنى الثاني: ".. وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله .."

**تصفية المعاملات لنُحصِّل أوثق عرى الإيمان: ( الحب في الله والبغض في الله )**

الصحبة الصالحة، الصحبة المعينة، رفقة الخير في زمن الغربة .. هذا الذي يُبلِّغنا تلك الأحوال وهذه المقامات.

والأمر الثالث: ".. وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار"

وهذا إن بقي في القلب راسبه، إن بقي في القلب حب المعصية، إن بقي في القلب التعلُّق برواسب الجاهلية، يكون الإنسان منا دائم الإلحاح على نفسه .. دائم الذكر دائم الدعاء ..

يـــــا رب كره إليَّ الكفر والفسوق والعصيان .. يـــا رب لا أعود لهذه الأيام أبداً، يـــــا رب لا تذكرني بها .. يـــــا رب لا يكون في قلبي أثر من آثارها .. يـــــا ربِّ اسلل سخائم صدري .. يـــــا ربِّ اغسل حوبتي .. اغسل قلبي من آثار الذنوب .. باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد ..

يقطع كل الصلات التي تجعله قريبًا من هذه الأحوال، كما قال أبو الهيثم بن التيهان في بيعة العقبة الثانية:

إن بيننا وبين القوم حبلاً، وإنا لقاطعوها

**أما الحديث الثاني::** وهو الذي أريد أن تتأملوه جيدًا، هذا الحديث رواه أبو داوود وصححه الألباني، أن النبي ﷺ قال " ثلاثٌ من فعلهن فقد طَعِمَ طعم الإيمان:

1) من عبد الله وحده وأنه لا إله إلا الله ..

**إذًا، التوحيـد .. التوحيـد الخالص ..**

توحيد يجعلنا على وصال بالله جلَّ وعلا، من خلال تعرفنا على أسمائه وعلى صفاته .. من خلال تعبُّدنا له حق العبودية .. هذا التوحيد العملي المطلوب .. والأمر الثاني : قال:

2) وأعطى زكاة ماله، طيبة بها نفسه، رافدة عليه كل عام ..

**إذًا، إيثار الله جلَّ وعلا على محبوبٍ عظيمٍ لدى النفس ..**

{وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا} [الفجر: 20] .. {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} [العاديات: 8]

فيؤثر الله عزَّ وجلَّ، فيُخرج زكاة ماله طيبةً بها نفسه، لا يصنعها إلا ابتغاء وجه الله، ولا يتيمم الخبيث ..

فقال النبي ﷺ " .. ولا يعطي الهرمة ولا الدرنة ولا المريضة ولا الشرط اللئيمة ولكن من أوسط أموالكم .."

فينبغي ألا يأخذ صاحب العاهات أو العيوب، كما هو مقرر في كتب الفقه في هذا الباب ..

".. ولكن من أوسط أموالكم، فإن الله لم يسألكم خيره ولم يأمركم بشره .."

**إذًا، الأمر الثاني:: الزكـاة ..**

والزكاة تكون من أوسط الأموال؛ ليكون أيضاً هذا فيه الدلالة على إيثار الله على هوى النفس .

ثم الثالثة، وهي محل الشاهد: يقول:

" .. وزكِّ نفسه" [صحيح الجامع (3041)]

فقال الرجل للنبي ﷺ: وما تزكية النفس ؟، قال : "أن يعلم أن الله عز وجل معه حيث كان" [السلسلة الصحيحة (1046)]

أن يعلم أن الله عزَّ وجلَّ معه حيث كان ..

هذا الذي يُطَهِّرُنا ..

**معرفة الله بأسمائه الدالة على مراقبة العبد له ..**

سبحانه وتعالى الرقيب .. الشهيد .. السميع .. البصيـــــر .. العليـــــم ..

يعرف العبد أن الله معه حيث كان، يعلم سره وعلانيته .. يعلم بواطنه وظواهره .. وإذا آتى الله نفوسنا تقواها، وزكها فهو سبحانه وتعالى خير من يزكيها، فإنه حينئذٍ يشعر الإنسان منا بتلك المعاني العالية حين تُزكى النفس ويُطهَّر القلب ..

وماتزكية النفس ؟ .. أن يعلم أن الله عزَّ وجلَّ معه حيث كان،،

وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال " ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد – ﷺ – رسولاً" [صحيح مسلم]، فدلنا على معنى آخر ..

**وهو معنى الرضـــا ،**

وكيف أنه يُحصِّل هذه الأحوال مِن: ضَحِك القلب وحلاوة الإيمان وطعم الإيمان ..

فتلك الأحاديث قررت لنا أن للإيمان طعم، وللإيمان حلاوة .. وهذه الحلاوة .. وهذا الطعم لا يُحصلها الإنسان إلا بمعرفة الرحيم الرحمن ، فلا يضحك القلب إلا إذا تحققت تلك المعاني.

**الأمر الثالث:** أوصيكم ونفسي بهذا الباب المهم في كتاب **(إغاثة اللهفان)** في الجزء الأول الباب السادس، الذي عقده الإمام ابن القيم ليقرر نفس المعنى الذي نتحدث عنه ..

قال الإمام ابن القيم، وأنا سألخص لكم ما ذكره على أن تعودوا لقراءة هذا الباب، وهو أيضاً من جملة الواجبات العملية الخاصة بهذه المحاضرة، قال:

**الباب السادس: في أنه لا سعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح إلا بأن يكون الله هو إلهه وفاطره وحده، وهو معبوده وغاية مطلوبه، وأحب إليه من كل ما سواه ..**

## متى سيضحك القلب؟

قال: عندما تكون معاني التوحيد، معاني المعرفة الحقيقية بالله تبارك وتعالى راسخة بالقلب .. أنا أعرف أن هناك أناس كثيرون، عندما نذكر هذه المعاني ويكون القلب غـــافل أو شـــارد أو بعيـــد عن ذوق تلك الأمور، أحياناً الناس تُحبط وتقول: أنت تتحدث في معاني عالية جدًا، ونحن أقل من ذلك بكثير، نحن مازلنا لم نحصِّل الشيء الذي يبلغنا!! .. وأنا أقول: هذا من تخذيل الشيطان ابتداءً، حتى نغلق الباب عن الوساوس .. لأن بعض الناس يسمعني، وممكن يكون في الطريق منذ سنة أو سنتين أو ثلاث، أو شهر أو شهرين، أياً ما كان .. وحاول أنه يبلغ ذلك، فأتته تلك الأحوال وضَحِك قلبه وحدثت له بعض البشارات، لكن بعد قليل حدثت له انتكاسات

وحدث له فتور وحدث له ما لا يحمد .. فحينئذٍ البعض يصاب بالإحباط واليأس، حينما نذكر تلك المعاني؛ لأنه لم يعد يذوقها، وأنا أقول جوابًا عن تلك الشبهات الشيطانية::

## أولاً: هذا من فعل الشيطان ..

{..وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} [الفرقان: 29] .. فإيـــــاكم وتلك المعاني .

## ثانيًا: عندما نتكلم بهذا ونُلِح به على القلب هذا من العلاج وهذا من الدواء ..

وهذا مما يجعل النفس تشتهي أن تصِل وتُبَلَّغ، وهذا مما يجعلها أكثر انقطاعًا لله تبارك وتعالى .. هذه المعاني عندما نعيشها حتى ابتداءً في أذهاننا وفي خيالاتنا، ونرجو من الله عزَّ وجلَّ أن تتحقق في واقعنا، ونتلمسها في قلوبنا .. مجرد ذكرها والإلحاح على النفس بها ..

**هذا سبب من أسباب التدواي، لكن علينا أن نُحسِن طرق المعاجلة بهذه الكلمات لقلوبنا؛ حتى لا يستخدم الشيطان هذه الكلمات استخدام آخر ، فيحول بيننا وبين ما نشتهي !**

فافهموا عني هذا، واسمعوا ما قرره الإمام ابن القيم هنا، من حجج ليقرر هذه القاعدة ..

**لأننا نحتاج دائمًا في المعالجة إلى أمرين:**

**الأمر الأول: القناعة العقلية ..**

**والأمر الثاني: الحماسة القلبية ..**

نحن نحتاج حتى نطبق، نحتاج إلى إرادة .. هذه الإرادة تبعث فينا العمل، ونحتاج من قبلها علم يكون سببًا في بعث الإرادة والهمة .. فعندما نقول: يا جماعة، والله لن تذوقوا طعم الإيمان ولا حلاوة الإيمان التي ستكون سببًا من أسباب التثبيت على الطريق .. والله لن نذوق ذلك إلا إذا ترسخت هذه المعاني فينا .. فيبدأ الواحد منا يركز، ويستحضر هذه المعاني أمامه .. ويقول: نعم، لماذا أنا لا أريد أن أقتنع بهذا المعنى؟

## لماذا الدنيا أصبحت تستحوذ على القلوب بهذا الشكل، هل تعلمون لماذا ؟

**لأننا تركنا هذه القلوب لشبهات الشياطين، شياطين الإنس والجن .. واحتكاكنا بأهل الدينا أفسد علينا ذلك، فأصبح لدينا حاجز نفسي في التطبيق، وأصبح استمتاعنا الحقيقي الواقعي الذي هو الرصيد الحقيقي الذي في قلوبنا، هو الاستمتاع بالدنيا !!**

فعندما نتكلم عن حلاوة الإيمان .. يـــــا سلام! وهل الواحد يكره أن يكون لديه ذلك أيضًا ؟ .. لكن قبل ذلك، عنده اهتمام بالتمتع الدنيوي .. والله سبحانه وتعالى جعل التمتع الحقيقي هو متاع الآخرة .. {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ..} [هود: 3] .. المتـــــــاع الحقيقي ..

فلابد أن نتبرمج، قبل أن أسوق كلام الإمام ابن القيم هنا، وأقول النقاط التي دلل بها على هذا المعنى الجليل، نريد أن نأخذ هذا الأمر على سبيل البرمجة الفكرية؛ حتى تكون لدينا القناعة العقلية، التي تولد الحماس القلبي ، الذي إذا اجتمع مع قناعةٍ عقلية سليمة أنتجت التغيير الحقيقي ، فهمتم؟

ابن القيم يقول – رحمه الله – **"معلوم أن كل حَيّ سوى الله تبارك وتعالى: من ملك أو إنس أو جن أو حيوان، فهو فقير إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، ولا يتم ذلك له إلا بتصوره للنافع والضار .."**

أول شيء كلنا نريد أن نكون سعداء، وكلنا نتمنى أن تضحك قلوبنا، في الزمن الذى لا يعلم شأنه إلا الله .. كلنا نحتاج هذا المعنى، كلنا نبحث عن السعادة ..

## فيما تتحقق السعادة؟!

أن أحقق مصلحتي ومنفعتي، وأن أدفع عن نفسي أي ضرر ممكن أن يُفسِد عليَّ حياتي ..

## وهل أنا أعرف ما ينفعني وما يضرني ؟

أم إنني آخذ هذا الكلام وفق هواي، أو وفق كلام الناس، أو وفق العادات، أو وفق التصورات التي تُبث من حولي .. إعلام يقول لي: أنك إذا فعلت ذلك ستكون سعيد .. إذا فعلت هذه المعصية الفلانية ستعيش .. إعلام يقول لي: أنه ليس من الضرر أن تفعل المعصية الفلانية، لن تكون مشكلة بالنسبة لك ..

فابن القيم يقول: "ولا يتم ذلك له إلا بتصوره للنافع والضار، والمنفعة من جنس النعيم واللذة، والمضرة من جنس الألم والعذاب".

قال أننا نتكلم في أربعة أمور:

الأمر الأوَّل: أن أعرف ما هو المحبوب المطلوب الذي سأنتفع به وأتلذذ بإدراكه ..

الأمر الثاني: معرفة المُعين الذي سيوصل إليَّ هذا الأمر ..

ما هو الشيء الذي يجعلني فَرِح وأكون مبسوط، وأشعر بلذة الإيمان ولذة التعبُّد وهذه المعاني؟

والأمرين الآخرين: قال: ومكروه بغيض ضـــــار ..

إذًا يجب أن يعرف ماهيةُ .. ويعرف أيضًا وهو الأمر الرابع:

معين دافع له عنه

إذاً .. 1) أمر محبوب مطلوب الوجود .. 2) وأمر مكروه مطلوب العدم ..

3) ووسيلة تُحصل هذا المحبوب .. 4) ووسيلة تدفع هذا المكروه ..

قال: وهذه الأمور الأربعة ضرورية للعبد، بل ولكل حيوان لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها.

فإذا تقرر ذلك، فالله تعالى هو الذي يجب أن يكون هو المقصود ..

لابد أن يكون هدفي الحقيقي هو: : قربه ورضاه ..

قال : الله هو المقصود؛ لأن اسمه الصمد .. المقصود لذاته سبحانه وتعالى ..

.. المطلوب الذي يُراد وجهه ويُبتغى قربه ويُطلب رضاه، وهو المعين على حصول ذلك.

إذًا مَن سيكون النفع منه لي؟ من الذي ينبغي أن يكون محبوبي الأول ؟

# الله جلَّ وعلا ..

ومن سيمدني بالحوّل والقوة ؟ وسيُعينني على تحصيل هذا الأمر ؟

# الله جلَّ وعلا ..

قال : وهو المعين على حصول ذلك. وعبودية ما سواه والالتفات إليه، والتعلق به: هو المكروه الضار،

إذًا ما الذي ينبغي أن يكون مكروهي ؟

## من أحب أحدًا سوى الله عُذِّب به ولابد

علِّق قلبك بأي شيء من الدنيا .. تعلَّقي بأي شيء من حطام الدنيا الفاني، ستجدي العذاب والمرار .. ستجدين الضرر والمكروه الحقيقي ..

مَن الذي سيدفع عني ضرر الدنيا؟ وضرر الشيطان؟ وضرر النفس؟ وضرر الهوى ؟ من الذي سيدفع عني ذلك ؟

# هو الله سبحانه وتعالى ..

قال: فالجامع لهذه الأمور الأربعة هو سبحانه دون ما سواه. فهو المعبود المحبوب المراد. وهو المعين لعباده على وصوله إليه وعلى عبوديته. والمكروه البغيض إنما يكون بمشيئته وقدرته، وهو المعين لعبده على دفعه عنه، لذلك قال أعرف الخلق به ﷺ: "أَعُوذ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ" [صحيح الجامع (1280)]

وكان يقول ﷺ: "اللهُمَّ إِنِّى أَسْلَمْتُ نَفْسِى إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِى إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِى إِلَيْكَ، وَأَلْجأْتُ ظَهْرِى إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَى مِنْكَ إلا إِلَيْكَ" [متفق عليه]

فالذي يُنجي هو الله .. والذي إليه الملجأ هو الله .. والذي الاستعاذة به هو الله، الذي يُعيذنا من شر ما هو كائن بمشيئته وقدرته سبحانه وتعالى ..

إذًا الأمر كله لله، والحمد كله لله، والملك كله لله، والخير كله في يديه لا يُحصي أحد من خلقه ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه سبحانه وتعالى .. وهذا تحقيق معنى قوله : {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة :5 ]

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ...} .. عبوديته سبحانه وتعالى، عبوديته التي هي من معنى ألوهيته .. حبه والتذلل له والانكسار بين يديه ..

{...وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} .. من معاني ربوبيته جلَّ وعلا ..

قال : فإن الإله هو الذي تألهه القلوب ..

يا جماعة، اسمعوا بالله بأذان القلوب؛ لأن الكلام لا أريده أن يترل على قلوبنا هكذا ويمر فقط .. الإله الذي تألهه القلوب هو الله .. تسمع وفقط، لكن القلب غير مُستشعر! .. أحِس معي واستشعر هذه المعاني بالله، القلب لابد أن يأله .. أي: ينكسِر ويذِّل ويخضع ويُحب ربَّه تبارك وتعالى.

فالمحبة والإنابة والإجلال والإكرام والتعظيم والذل والخضوع والخوف والرجاء والتوكُّل .. هذه كلها من أعمال القلوب تجـــــاه الربِّ المعبود سبحانه وتعالى ..

توحيدُنا للإله يُحقق تلك المعاني في قلوبنا، وتوحيدُنا للربِّ نعرف أنه الذي يُربينا فيُعطينا خلقنا وهدانا {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (*) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} [الأعلى:2,3] .. والذي يهدينا إلى مصالحنا ..

فلا إله إلا هو، ولا رب إلا هو. فكما أن ربوبية ما سواه أبطل الباطل، فكذلك ألوهية من سواه كذلك.

ابن القيم قال : وفي القرآن سبع مواضع ذُكِرَ فيها تقرير هذا المعنى::

الأول: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة :5 ]

والثاني : {...فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ...} [هود: 123]

الثالث : {...وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود: 88]

الرابع : {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ...} [الفرقان: 58]

الخامس : {...قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ} [الرعد: 30]

السادس : {...رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [الممتحنة: 4]

السابع : {...وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً} [المزّمّل: 8]

{رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً} [المزّمّل: 9]

فقال : فهذا هو الوجه الأول .. الوجه الأول: أن الإنسان منا يحتاج أن يُحصِّل منفعة، ويدفع عن نفسه ضرر، ويحتاج إلى الطريقة التي تجعله يُحصِّل هذه المنفعة، وما هو الشيء الذي من خلاله يدفع هذا الضرر .. هؤلاء الأربعة أمور لا يتحصَّل عليهم العبد إلا من ربِّه سبحانه وتعالى .. لو آمن بالله ربًا وبالله إلاهًا، يكون القلب حينئذٍ مُحصِّل للمنفعة دافع عن نفسه المضرة .. حينئذٍ يفرح القلب .. يضحك القلب؛ لأنه وحَّد الله وهذا معنى أن من حقق ذلك جمع الله عليه الشمل وكان غِناه بين عينيه ثم الدنيا تأتيه وهي راغمة، كما قال النبي ﷺ فيمن كان همه الآخرة .. همه أن يُقبل على الله .. همه لقاء الله .. همه النظر إلى وجه الله الكريم.

ابن القيم قال: الوجه الثاني : أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق لعبادته، الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته، والإخلاص له، فبذكره تطمئن قلوبهم، وتسكن نفوسهم، وبرؤيته فى الآخرة ..

يـــــا رب نسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقاءك،

يقول: وبرؤيته فى الآخرة تقر عيونهم، ويتم نعيمهم، فلا يعطيهم فى الآخرة شيئا خيراً لهم ولا أحب إليهم، ولا أقر لعيونهم، ولا أنعم لقلوبهم: من النظر إليه، وسماع كلامه منه بلا واسطة.

أنك تسمع الكلام من لدن الله تبارك وتعالى بلا واسطة .. أتتصورون يا جماعة كيف يكون هذا المعنى؟ فنحن عندما نُصلي وراء قارئ، ويقرأ بصوت حسن جميل ويُزين القرآن بصوته يطير القلب من الفرح .. فما بال

القلب لو سمع القرآن من لدن الرحمن، سمع بأذنه كلام الرحمن ..فكيف يكون عيشه ؟ .. سيدنا موسى عندما فقط كلمه ربه قال : رب أرني، لم يقدر اشتاق .. فما بالنا إذا سمعنا الكلام هكذا مباشرة فكيف يكون الحال؟

ولم يعطهم فى الدنيا شيئا خيرا لهم ولا أحب إليهم، ولا أقر لعيونهم من الإيمان به، ومحبته والشوق إلى لقائه، والأنس بقربه، والتنعُّم بذكره.

ثم أشار ابن القيم إلى الحديث الذي رواه النسائي والإمام أحمد وابن حبان في صحيحه وهو حديث صحيح من دعاء النبي ﷺ : "اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي وتوفني إذا علمت الوفاة خيرًا لي اللهم. وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضى والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضى بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة .." [رواه النسائي وصححه الألباني]

ابن القيم يقول : هذا الدعاء العظيم جمع كل ما هو حَسَن في الدنيا .. أطيب شيء في الدنيا وهو: الشوّق إلى لقاء الله، وأطيب شيء في الآخرة وهو: النظر إلى وجه الله.

فجمعهما النبي ﷺ في قوله ".. وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة .."

قال: أن النعيم نوعين هناك:: نعيم يكون للبدن، وهناك نعيم يكون للقلب .. نعيم البدن معروف، ونعيم القلب هو: قرة العين؛ لذلك قال ".. وأسألك نعيمًا لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع .."

هذا هو ضحك القلب .. هذه هي حلاوة الإيمان،،

انتبهوا،

**الوجه الأول:: قضية المنفعة والمضرَّة،**

**والوجه الثاني:: يرتبط بالشوق ويرتبط بالأنس ويرتبط بسكن القلب ..**

النعيم الذي لا ينفد حين يكون القلب على هذه الأحوال التي طلبها النبي ﷺ في حديث عمَّار ابن ياسر المتقدم.

**الوجه الثالث: الفقر ..**

لأن الواحد منَّا محتاج إلى ربِّه، ويقول ابن القيم: ليس له نظير كي أشبه به، لكن أكثر شيء ممكن أن يُقرِّب المعنى قليلًا **احتياج الجسد إلى الغذاء والشراب ..**

"فإن حقيقة العبد قلبه وروحه، ولا صلاح له إلا بإلهه الحق الذى لا إله إلا هو، فلا يطمئن إلا بذكره، ولا يسكن إلا بمعرفته وحبه، وهو كادح إليه كدحا فملاقيه، ولا بد له من لقائه، ولا صلاح له إلا بتوحيد محبته وعبادته وخوفه ورجائه"

يعرف هذه المعاني .. يعرف ربه حق المعرفة، فيعرف أنه أحوَّج ما يكون إلى ربه حين يشعر بفقره ويشعر بأهمية أن يكون متقربًا إلى ربِّه تبارك وتعالى من خلال تلك المعاني .. من حبه .. من سكون القلب له .. من سجود القلب من خوفه من رجاءه .. يعرف حينئذٍ أنه لا نجاة له ولا فلاح له ولا لذة له ولا سعادة له إلا أن يتحصَّل هذا في قلبه ويعرف أنه أفقر ما يكون لذلك.

**الوجه الرابع: قال: أن أفضل نعيم في الآخرة وأجلُّه وأعلاه على الإطلاق هو النظر إلى وجه الربِّ تبارك وتعالى، وسماع خطابه ..**

الحديث في صحيح مسلم حديث صُهيّب رضيَّ الله عنه، أن النبي ﷺ قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يثقل الله موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة وينجنا من النار؟، فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إليه .." [صحيح الجامع (521)]

يـــــــا رب قلوبنا تصير مُشتاقة .. يـــــا رب هذا الكلام نشعر به .. يـــــــا رب أدخِل هذه المعاني في قلوبنا .. يـــــــا رب أشعرنا باحتياجنا لهذا الكلام والله ..

يا رب إذا كان منَّا مَن هو مُتبلِّد إحساسه، ومن منَّا في غفلة وشرود وفي انتكاس وفي فتور .. يا رب اجعل لهذه الكلمات أثرًا في إزالة تلك الحُجُب عنَّا ..

ففي الحديث: فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه ..

يـــــــــــا رب متعنا بالنظر إلى وجهك الكريم،،

فلم يعطهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه، وإنما كان ذلك أحب إليهم لأن ما يحصل لهم به من اللذة .. (هذا هو ضحك القلب والله) .. اللذة والنعيم والفرح والسرور وقرة العين، فوق ما يحصل لهم من التمتع بالأكل والشرب والحور العين ..

وأيُّ نسبة بين هذه اللذات وبين لذة النظر إلى وجهه الكريم؟!!

لذلك الآية التي تُقطع عندما نمر عليها، ونخـــــاف أن يكون لأحدنا نصيب منها ..

{كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (*) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ} [المطففين: 15,16]

فجعل أشد العذاب أنهم يُحجبوا عن الله، وبعد ذلك قال وسيصلون الجحيم .. ويصير بالتالى أعلى النعيم، نعيم التمتع بما فى الجنة ؟! .. لا ..

والله، أعلى النعيم التمتع برؤيته ..

لذلك قال: { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (*) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ} [المطففين: 22,23]

يقول ابن القيم "ولقد هضم معنى الآية من قال: ينظرون إلى أعدائهم يعذبون، أو ينظرون إلى قصورهم وبساتينهم، أو ينظر بعضهم إلى بعض .."

{عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ} [المطففين: 23]

الذى فسر كلمة "يَنْظُرُونَ": بأنهم ينظرون إلى المعذبين، فيحمدون الله على العافية .. و ينظروا إلى إخوانهم أو ينظروا إلى النعيم، من القصور والبساتين والحور وماشابه ..

قال: وكل هذا عدول عن المقصود إلى غيره، وإنما المعنى: ينظرون إلى وجه ربهم ..

{ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} [المطففين: 22]

نعيمهم نظرهم إلى وجه ربهم الكريم ..

وضد حال الكفار الذين هم عن ربهم لمحجوبون.

{ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الجحِيمِ} [المطففين: 16].

يقول ابن القيم : وتأمل كيف قابل سبحانه ما قاله الكفار في أعدائهم في الدنيا وسخروا به منهم، بضده في القيامة، فإن الكفار كانوا إذا مر بهم المؤمنون يتغامزون ويضحكون منهم: {وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضَالُّونَ} [المطففين: 32]

فقال الرحمن: {فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (*)عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ} [المطففين: 34,35]

فأطلق النظر، ولم يقيده بمنظور ..

ولم يقل ينظرون لأي شيء بالتحديد، والنظر إلى الله تبارك وتعالى هو أعلى ماينُظر إليه

والنظر إليه أجل أنواع النظر وأفضلها، وهو أعلى مراتب الهداية، فقابل بذلك قولهم:

{إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ} [المطففين: 32].

فالنظر إلى الرب سبحانه مراد من هذين الموضعين

ابن القيم يقول: {عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ} [المطففين: 23] .. ينظرون إلى الله تبارك وتعالى إبتداءً، ثم باقى المنظورات.

إذًا، الوجه الرابع .. لو أن أحدنا برمج نفسه على هذا المعنى:

إن أفضل النعيم: هو النظر إلى وجه ربِّك الكريم، وسماع خطابه .. وهفت نفسه إلى ذلك وصار هذا مقصودًا له .. فإنه حينئذٍ يشعر بلذة لا يدانيها لذة ..

أن يستشعر تلك المعاني فقط قبل أن يذوقها حق اليقين، مجرد استشعارها تجمع القلب على قصد طريق الربِّ،،

**الوجه الخامس: يقول: أن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدي ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، بل الله وحده هو الذي يملك له ذلك كله ..**

إذًا، لا سعادة له إلا أن يعرف من هو ربه، فيضحك قلبه ..

{مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [فاطر: 2]

يقول: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [يونس: 107]

إذًا لو فهمنا هذا وعرفنا هذه المعاني، يكون ذلك من فطنة العبد ..

يقول ابن القيم: ويذكر أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه:

"أدْرِكْ لِي لَطِيفَ الْفِطْنَةِ، وَخَفِي اللُّطْفِ، فَإِنِّي أُحِبُّ ذلِكَ. قَالَ: يَا رب وَمَا لَطِيفُ الْفِطْنَةِ؟ قَالَ: إنْ وَقَعَتْ عَلَيْكَ ذُبَابَةٌ فَاعْلَمْ أَنِّي أَنَا أَوْقَعْتُهَا فَاسْأَلْنِي أَرْفَعْهَا. قَالَ: وَمَا خَفِيُّ اللُّطْفِ؟ قَالَ: إذَا أَتَتْكَ حَبَّةٌ فَاعْلَمْ أَنِّي أَنَا ذَكَرْتُكَ بِهَا"

الله .. الله على المعنى الرقاق العالي .. إن أحدنا يعلم أن الله هو الذي يرزقه، و هو الذي ينصره .. أن يعلم أنه إذا مسه بسوء لم يرفعه عنه غيره .. وإذا ناله بنعمة لم يرزقه إياها سواه ..

قال له: عندما يأتك أدنى شيء، حتى لو وقعت عليك ذبابة .. قل: نعم، الذي أوقعها عليَّ ربِّي، ولا يرفعها عني إلا هو .. وأعرف أنه لو أتتك حبة .. أعرف أن الله سبحانه وتعالى يذكرك بنفسه من خلال تلك الحبة، فلا تنسى شكرها ..

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر قال: سمعت وهبًا يقول: قال الله تعالى فى بعض كتبه:

"بِعِزَّتِى، إنّهُ مَنِ اعْتَصَمَ بِى، فَإِنْ كادَتْهُ السَّموَاتُ بِمَنْ فِيهِنَّ، وَالأَرَضُونَ بِمَنْ فِيهِنَّ، فَإِنِّى أَجْعَلُ لَهُ مِنْ ذلِكَ مَخْرَجاً، وَمَنْ لَمْ يَعْتَصِمْ بِى، فَإِنِّى أَقْطَعُ يَدَيْهِ مِنْ أَسْبَابِ السَّمَاءِ وَأَخْسِفُ بِهِ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ الأَرْضَ، فَأَجْعَلُهُ فى الْهَوَاءِ، ثُمَّ أَكِلُهُ إِلَى نَفْسِهِ، كَفِّى لِعَبْدِى مَلأى، إِذَا كانَ عَبْدِى فى طَاعَتِى أعْطِيه قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَنى، وَأَسْتَجِيبُ لَهُ قَبْلَ أنْ يَدْعُوَنِى، فإِنِّى أَعْلَمُ بِحَاجَتِهِ الَّتى تَرْفُقُ بِهِ مِنْهُ".

الله ... والله كل كلمة تحتاج إلى درس .. لكن المعنى الذي ينبغي أن يُسطَّر الآن حين نسمع مثل هذه الكلمات على القلوب ..

ألا نعتصم إلا به .. ألا نوجه قلوبنا لغيره ...

أن نعرف أن الله عزَّ وجلَّ أجوَّد علينا بالخير .. وأنه يعطي عباده الذين يسعون في طاعته، يعطيهم قبل سؤالهم إياه .. ويستجيب لهم قبل أن يدعوه .. فهو أعلم بأحوالهم وأعلم بحاجاتهم .. فإذًا، نفوِّض له الأمر .

يا عبد الله .. يا أمة الله، ألم ترق القلوب لمثل هذه المعاني ؟!!

قال عطاء الخراساني: لقيت وهب بن منبه، وهو يطوف بالبيت، فقلت له: حدثني حديثًا أحفظه عنك في مقامي هذا وأوجز، قال نعم:

"أَوْحَى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلى دَاوُدَ: يَا دَاوُدُ، أَمَا وَعِزَّتِى وَعَظَمَتِى لا يَعْتَصِمُ بِي عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِي دُونَ خَلْقِي – أَعْرِفُ ذلِكَ مِنْ نِيتِهِ – .. (مجرد أن نيتك تتوجه إلى الله تبارك وتعالى) .. فَتَكِيدُهُ السَّموَاتُ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ إِلا جَعَلْتُ لَهُ مِنْ بَيْنِهِنَّ مَخْرَجا؛ أَمَا وَعِزَّتِي وَعَظَمَتِي لا يَعْتَصِمُ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِي

بِمَخْلُوقٍ دُونِي – أَعْرِفُ ذلِكَ مِن نِيَّتِهَ– إلا قَطَعْتُ أسبابَ السَّماءِ مِنْ يدِه، وَأَسَخْتُ الأرْضَ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ، ثُم لا أُبَالِي بِأَيِّ وَادٍ هَلَكَ".

يقول ابن القيم: ونظير ذلك: من ينزل به بلاء عظيم، أو فاقة شديدة، أو خوف مقلق، فجعل يدعو الله سبحانه ويتضرع إليه، حتى فُتِحَ له .. وهذا ما أتحدث عنه من بداية الدرس .. حتى فُتِحَ له من لذيذ مناجاته وعظيم الإيمان به، والإنابة إليه ما هو أحب إليه من تلك الحاجة ..

يظل أحدهم يدعو إلى أن يشعر بقرب الله تعالى .. { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ..} [البقرة: 186]

فيصير القرب عنده أشهى من المطلوب .. أنا لا أريد شيئًا بعد ذلك، حتى لو كنت أقول أنني أحتاج لكذا وكذا .. لكن إحساسي بقرب الله تعالى مني ولذة مناجاته، أصبحت أطيَّب عندي من كل مطلوب ..

ولكنه لم يكن يعرف ذلك أولا حتى يطلبه، ويشتاق إليه ..

لو المعنى هكذا، عرفنا الله تعالى من خلال المناجاة والتعبُّد ..وعرفناه بلطيف الفطنة وخفي اللطف ..

حينئذٍ تترسخ المعاني في القلب، فيضحك القلب،،

**والوجه السادس: أن تعلُّق العبد بما سوى الله تعالى مضرة عليه، إذا أخذ منه فوق القدر الزائد على حاجته،**

شخص يحب زوجته .. أخت تحب والدتها .. هذا حب جبِّلي لا إشكال فيه، لكن أحيانًا يتعلَّق الواحد منا بالمخلوق أزيَّد عن الحاجة ..

فإذا نال من الطعام والشراب والنكاح واللباس فوق حاجته ضره ذلك، ولو أحب سوى الله ما أحب، فلا بد أن يسلبه ويفارقه،

".. أحبب من شئت فإنك مفارقه" [حسنه الألباني، صحيح الجامع (73)]

فإن أحبه لغير الله فلا بد أن تضره محبته ويعذَّب بمحبوبه،

## يا كل من تعلَّق قلبه بغير الله، اسمع تلك الكلمات ..

قال: والغالب أنه يعذب به في الدارين ..

يُعذَّب به في الدنيا ويُعذَّب به في الآخرة إلا أن يطهُّر قلبه ..

قال الرحمن {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ} [التوبة: 34,35]

هذا أحب المال وشُغِلَ به، فقال الرحمن بعد هذه الآيات ..

{فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُم كَافِرُونَ} [التوبة: 55]

إذًا، العذاب كل العذاب في معرفة القلب لسواه وفي تعلُّق القلب بغيره، ومعرفة القلب لغيره ..

ومن أبلغ العذاب في الدنيا: تشتيت الشمل وتفرق القلوب، وكون الفقر نصب عيني العبد لا يفارقه،

هذا ضنك ما بعده ضنك، فلو فهمنا ولو عقلنا ولو وطنَّا أنفسنا وأشتغلنا بذكر ربِّنا .. حينئذٍ يشعر القلب بتلك المعاني، فيضحك ..

اعرفوا وافهموا وتيقنوا ..

أن من أحب شيئًا سوى الله عزَّ وجلَّ فالضرر حاصل له بمحبوبه: إن وجده وإن فقده، فإنه إن فقده عُذِّب بفراقه وتألم على قدر تعلُّق قلبه به، وإن وجده كان ما يحصل له من الألم قبل حصوله، ومن النكد في حال حصوله، ومن الحسرة عليه بعد فوته، أضعاف أضعاف ما في حصوله ..

فافهموا هذا المعنى ..ثم قال:

**الوجه السابع: أن اعتماد العبد على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته هو ولا بد، عكس ما أمله منه ..**

الواحد يركن بقلبه على غير الله، فيُخذل .. وهنا يشعر بالألم والنكد، فيبكي القلب لا يضحك ..

والعكس تمامًا في التوكُّل على الله تعالى ..

قال الله جلَّ وعلا {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزا كَلا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدا} [مريم: 81,82]

وقال {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلّهُمْ يُنْصَرُونَ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ} [يس: 74,75]

فحينئذٍ عليك أن تمتثل وعليكِ أن تفهمي وتمتثلي لقول الله تبارك وتعالى:

{ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ} [الشعراء: 213]

أي: في الدنيا والآخرة بركون القلب على غير الربِّ تبارك وتعالى.

والمعنى الثامن والأخير: قال الإمام ابن القيم:

**الوجه الثامن: أن الله سبحانه غنيٌّ كريم، عزيزٌ رحيم.**

فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه، يريد به الخير، ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعه إليه من العبد، ولا لدفع مضرة، بل رحمة منه وإحسانا.

فكل الخلق يحتاجك لنفسه .. أما الله سبحانه وتعالى فإنه يريدك لك ..

كل الناس يريدونك ليأخذوا عنك .. أما الله فلا يريد منك شيئًا فهو الغني ..

{مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ} [الذاريات: 57]

{ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا}

[الإسراء: 111]

فهو سبحانه لا يوالي من يواليه من الذل، كما يوالي المخلوق المخلوق، وإنما يوالى أولياءه إحسانًا ورحمة ومحبة لهم.

فهذه وجوه ثمانية قرر بها الإمام ابن القيم هذه العلامة::

أن من عَرِف ربَّه تبارك وتعالى حصَّل هذا النعيم المقيم.. { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} [المطففين: 22]

حصَّله إذا برمَّج نفسه على تلك المعاني الثمانية، حينئذٍ يشعر بهذا الأمر و يحصله، فيذوق طعم الإيمان وحلاوة الإيمان ..

# أمثلة للذة التعبُّد من سيرة النبي ﷺ والصحابة

وأخيرًا، أذكر لكم بعض الأمثلة السريعة التي جائت في سيرة النبي ﷺ وفي سيرة الصحابة، والتي تُدَلِل على هذه العلامة .. كيف أن من حصَّل تلك المعرفة، كان يشعر بشيءٍ آخر في حال تعبُّده، لذة العبادة الحقيقة التى نحتاجها كلنا ..

أليس النبي ﷺ كان أشد الناس لله عبادة، إن شئت أن تراه قائمًا أو راكعًا أو ساجدًا أو ذاكرًا في أي ساعة من ليلٍ أو نهار وجدته ﷺ .. كان كما تقول أمنا عائشة : "كان كل عمله ديمة، وأيكم يستطيع ما كان رسول الله ﷺ يستطيع" [رواه أبو داوود وصححه الألباني]

## كان يتألم !! وهل سمعتم أنه قال : أنه يتألم ؟؟

إن هذا التعبير ليس بصحيح، هل كان يتألم وهو ﷺ قدماه متورمتان من أثر طول القيام؟

ما تألم؛ لأنه كما فى هذه العلامة .. إذا كان البكاء على العين، فإن القلب يفرح ..

و إذا كان التورم في القدم، فإن القلب يفرح ..

وإذا كان القلب يضحك، فإن الواحد منا لا يشعر بمثل ذلك،،

## النبي ﷺ كان عند الشدائد والصعاب، كان أقرب الخلق من الرحمن ..

يوم بدر، قال علي " .. ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح" [رواه ابن خزيمة وصححه الألباني]

قد كان رسول الله ﷺ يكون في السفرة كما يخبر أبو الدرداء: الكل يشعر بشدة الحر، يقول "وما فينا صائم إلا النبي ﷺ وما كان من ابن رواحة"

النبى كان يخفف عنه كل ذلك: " .. إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني" [متفق عليه]

كان ﷺ وصاله بالله .. فرح قلبه بالله .. ضحك قلبه بالسكون، والسكينة التي تحل بالعبد حال التعبُّد ..

## فيا من تريدون تطبيقًا عمليًا لهذه العلامة ..

عليكم أن تكونوا من السابقين السابقين في أبواب التعبُّد .. من أصحاب الأعمال الفذَّة الكبيرة في هذا المقام، تدليلاً على صدق ذلك فينـــــا ..

## انظروا إلى رقيق القلب، غزير الدمع: أبو بكر ..

الذي كان إذا صلى، صلى أسيفًا .. لا يستطيع أن يقوم من مقامه من كثرة بكائه .. وهو في نفس الوقت أكثر المؤمنين يقينًا وتصديقًا بالنبي ﷺ .. و هو فى نفس الوقت لا يترك باب من أبواب الطاعات ..

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "من أنفق زوجين في سبيل الله نودي في الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان" ..

فقال أبو بكر: بأبي أنت وأمي، ما على من دعي من هذه الأبواب من ضرورة. فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟

## انظروا علو الهمة .. انظروا الشعور بلذة الطاعة .. انظروا قلوب هؤلاء كيف كانت؟!

قال النبي ﷺ "نعم، وأرجو أن تكون منهم" [رواه الترمذي وصححه الألباني]

هذا هو الذي أبحث عنه، نبحث عن مسارعة فى الخيرات علو همة حتى أرزق هذه المقامات العلا .. حتى نكون كما كان شيخ الاسلام يقول:

"إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة ..

ما يصنع أعدائي بي؟! .. أنا جنتي وبستاني في صدري، أنى رحت فهي معي لا تفارقني ..

إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة"

وكان يقول في محبسه في القلعة:

" لو بُدِّلت ملء هذه القلعة ذهبًا، ما عدل عندي شكر هذه النعمة .. ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير"

فكان في سجوده يديم أن يقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ..

وكان يقول: "المحبوس من حُبِسَ قلبهُ" .. المحبوس الذي لا يذوق قلبه هذه المعاني.

كانو يشعرون بلذة القرب .. لذة المناجاة، التى ليست من الدنيا كما قال سلفنا الصالح ..

يا ربِّ، اجعل من هذه الكلمات سببًا في أن تضحك قلوبنا وتُسَّر بربِّنا .. وننعم بمعرفتك، فيكون ذلك سببًا لحصول تلك الطمأنينة والسكينة واللذة والسعادة في قلوبنا أجمعين ..

يا ربِّ، أنزل على قلوب المسلمين السعادة والفرح والهناءة بك يا ربِّ ..

واجعلنا يـا كريم .. يـا أكرم .. يـا جـــواد ..

من عبادك الذين طارت قلوبهم لك، وأنسوا بك، واشتاقوا لرؤيتك ..

اجعلنا يا أرحم الراحمين، من أهل معرفتك الخاصة .. من أهل معيتك الخاصة ..

يا رب أحِبَنا يا ربَّ ..

وأرزقنا يا كريم لذة النظر إلى وجهك الكريم، والشوق إلى لقائك ..

نسألك نعيمًا لا ينفذ .. نسألك نعيمًا لا ينقطع .. وما ذاك عليك بعزيز ..

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك

وصلِّ اللهم على النبي محمد وعلى آله وصحبه وسلم،،

فضيلة الشيخ/ هاني حلمي